بسم الله الرحمن الرحيم

٧٤ — سورة المدثر

مكية . وآيها ست وخمسون آية .

قال ابن كثير : ثبت فى صحيح البخارىّ عن جابر أنه كان يقول : أول شىء نزل من القرآن (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ) وخالفه الجمهور ، فذهبوا إلى أن أول القرآن نزولًا قوله تعالى (ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ) كما سيأتى بيان ذلك هنالك ، إن شاء الله تعالى .

روى البخارىّ[1] عن يحيى بن كثير قال: سألت أبا سلمة بن عبدالرحمن عن أول مانزل من القرآن فقال : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ) . قلت: يقولون (ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ) فقال أبو سلمة : سألت جابر بن عبد الله عن ذلك ، وقلت له مثل ما قلت لى ، فقال جابر : لا أحدثك إلّا ما حدثنا رسول الله ﷺ قال : جاورت بحراء ، فلما قضيت جوارى هبطت ، فنوديت فنظرت عن يمينى ، فلم أر شيئاً ، ونظرت عن شمالى فلم أر شيئاً ، ونظرت أمامى فلم أر شيئاً ، ونظرت خلفى فلم أر شيئاً ، فرفعت رأسى فرأيت شيئاً . فأتيت خديجة فقلت : دثرونى وصبوا علىّ ماءً بارداً . قال ، فدثرونى وصبوا علىّ ماءً بارداً . فنزلت (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ » .

وروى الشيخان أيضاً[1] عن الزهرىّ قال : أخبرنى أبو سلمة بن عبد الرحمن عن جابر

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٧٤ ـ سورة المدثر، ١ ـ حدثنى يحيى حديث رقم ٤ .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٥٥ (طبعتنا) .

ابن عبد الله قال : سمعت النبيّ ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحى ، فقال فى حديثه : فبينا أنا أمشى إذ سمعت صوتا من السماء ، فرفعت رأسي، فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسيّ بين السماء والأرض ، فجُئِثْتُ منه رعباً ، فرجعت فقلت : زملونى زملونى . فدثرونى ، فأنزل الله تعالى : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ . . . » الآيات .

قال ابن كثير : وهذا السياق هو المحفوظ ، وهو يقتضى أنه قد نزل الوحى قبل هذا لقوله (فإذا الملك الذى جاءنى بحراء) وهو جبريل حين أتاه بقوله (ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ) ثم إنه حصل بعد هذا فترة ، ثم نزل الملك بعدُ . هذا وجه الجمع : أن أول شىء نزل بعد فترة الوحى هذه السورة .

وروى الطبرانىّ عن ابن عباس؛ أن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعاماً ، فلما أكلوا منه قال : ما تقولون فى هـــذا الرجل ؟ فقال بعضهم : ساحر ، وقال بعضهم : ليس بساحر ، وقال بعضهم كاهن ، وقال بعضهم : ليس بكاهن . وقال بعضهم : شاعر ، وقال بعضهم : ليس بشاعر . وقال بعضهم : سحر يؤثر . فأجمع رأيهم على أنه سحر يؤثر . فبلغ ذلك النبيّ ﷺ فحزن وقنع رأسه وتدثر ، فأنزل الله تعالى (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ . . .) الآيات .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ)

[٢] (قُمْ فَأَنذِرْ)

[٣] (وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ)

[٤] (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ)

[٥] (وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ)

[٦] (وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ)

[٧] (وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ » أى المتلفف بثيابه لنوم أو استدفاء ، من الدثار ، وهو كل ما كان من الثياب فوق الشعار . والشعار الثوب الذى يلى الجسد . وأصله (المتدثر) فأدغم . خوطب بذلك لحالته التى كان عليها وقت نزول الوحى . أو لقوله : دثرونى ـ كما نقدم ـ . وقيل : معناه المدثر بدثار النبوة والرسالة ، من قولهم : ألبسه الله لباس التقوى ، وزينه برداء العلم. ويقال : تلبس فلان بأمر كذا . فجعل النبوة كالدثار واللباس مجازاً .

قال الشهاب : إما أن يراد المتحلى بها والمتزين ، كما أن اللباس الذى فوق الشعار يكون حلية لصاحبه وزينة . وكذا يسمى (خلة) . والتشبيه بالدثار فى ظهورها ، أوفى الإحاطة . والأول أتم .

« قُمْ » أى من مضجعك ودثارك . أو قيام عزم وجدّ « فَأَنذِرْ » أى فحذر قومك من العذاب إن لم يؤمنوا .

قال الشهاب : لم يقل (وَبَشِّرْ) لأن كان فى ابتداء النبوة ، والإنذار هو الغالب ، لأن البشارة لمن آمن ، ولم يكن إذ ذاك . أو هو اكتفاء لأن الإنذار يلزمه التبشير.

« وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ » قال ابن جرير[1] أى فعظم بعبادته ، والرغبة إليه فى حاجاتك ، دون غيره من الآلهة والأنداد .

وقال القاشانىّ : أى إن كنت تكبر شيئاً وتعظم قدره ، فخصص ربك بالتعظيم والتكبير ، لا يعظم فى عينك غيره ، ويصغر فى قلبك كل ما سواه ، بمشاهدة كبريائه .

«وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ» أى: بالماء من الأنجاس . قال ابن زيد ، كان المشركون لا يتطهرون ، فأمره أن يتطهر ويطهر ثيابه . وقيل هو أمر بتطهير القلب مما يستقذر من الآثام .

قال قتادة : العرب تسمى الرجل إذا نكث ولم يف بعهد أنه دنس الثياب . وإذا وفى وأصلح ، قالوا : مطهر الثياب .

وعن ابن عباس : أى لا تلبسها على معصية ، ولا على غدرة . ثم أنشد لغيلان بن سلمة[2] الثقفىّ :

وإنى ، بحمد الله ، لا ثوبَ فاجر لبستُ ، ولا مِنْ غَدْرَةٍ أَتَقَنَّعُ

وفى الوجه الأول بقاء لفظى الثياب والتطهير على حقيقتهما ، وفى الثانى تجوّز بهما . وبقى وجه ثالث ، وهو حمل الثياب على حقيقتها ، والتطهير على مجازه ، وهو التبصير . لأن العرب كانوا يطيلون ثيابهم ، ويجرّون أذيالهم خيلاء وكبراً ، فأمر بمخالفتهم . ورابع وهو عكس

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٤ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) البيت لغيلان بن سلمة الثقفىّ .

قال فى اللسان (ث و ب) قال ابن عباس رضى الله عنهما : يقول : لا تلبس ثيابك على معصية ، ولا على فجورِ كفرٍ . واحتجّ بقول الشاعر :

إنى بحمد الله ، لا ثوب غادر لبستُ ولا عن خَزْيَةٍ أَتَقَنَّعُ

هذا ، وذلك ، بحمل الثياب على الجسد أو النفس كناية ، كما قال عنترة [١] :

* فشككتُ بالرمح الأصمِّ ثيابَهُ *

أى : نفسه . ولذا قال :

* ليس الكريم على القنا بِمُحَرَّمِ *

واستصوب ابن الأثير فى (المثل السائر) الوجه الأول . قال فى الفصل الثالث من فصول مقدمته : اعلم أن الأصل فى المعنى أن يحمل على ظاهر لفظه ، ومن يذهب إلى التأويل يفتقر إلى دليل ، كقوله تعالى (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ) . فالظاهر من لفظ الثياب هو ما يلبس . ومن تأول ، ذهب إلى أن المراد هو القلب ، لا الملبوس . وهذا لا بد له من دليل ، لأنه عدول عن ظاهر اللفظ .

ثم قال : المعنى المحمول على ظاهره لايقع فى تفسيره خلاف . والمعنى المعدول عن ظاهره إلى التأويل يقع فيه الخلاف ، إذ باب التأويل غير محصور ، والعلماء متفاوتون فى هذا ، فإنه قد يأخذ بعضهم وجهاً ضعيفاً من التأويل ، فيكسوه بعبارته قوة تميزه عن غيره من الوجوه القوية ، فإن السيف بضاربه [٢] :

إن السيوفَ مع الذين قلوبهم ... كقلوبهن ، إذا التقى الجمعانِ

تلقى الحسامَ على جراءة حدِّه ... مثلَ الجبان بكفِّ كل جبانِ . انتهى

ويكفى دليلاً ما للعرب من الشواهد والأمثال . والاستعمال لا ينحصر فى الحقيقة . نعم ، المتبادر أولى وأجدر ، وهو عنوان الحقيقة .

---

(١) من معلقته التى أولها :

هل غادر الشعراء من متردَّمِ ... أم هل عرفتَ الدار بعد توهمِ ؟

المتردَّم : الموضع الذى يسترقع ويستصلح ، لما اعتراه من الوهن والوهى .

(٢) قائله أبو الطيّب المتنبي ، من قصيدته التى مطلعها :

الرأى قبل شجاعة الشجعانِ ... هو أولٌ ، وهى المحـــل الثانى

الديوان (ص ٤١٢) طبعة لجنة التأليف عام ١٩٤٤ .

وقوله تعالى : « وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ » أى اتركه . و (الرجز) بكسر الراء كالرجس والسين والزاى يتبادلان ، لأنهما من حروف الصفير .

و (الرجس) اسم للقبيح المستقذر . كنى به عن عبادة الأوثان خاصة ، لقوله [1] : (فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ) أو عن كل ما يستكره من الأفعال والأخلاق. والجملة من جوامع الكلم فى مكارم الأخلاق ، كأنه قيل : اهجر الجفا والسفه وكل قبيح ، ولا تتخلق بأخلاق هؤلاء المشركين المستعملين للرجز .

وقيل : المراد بالرجز العذاب ، وهجره كناية عن هجر مايؤدى إليه من الشرك والمعاصى. فالرجز مجاز ، وقد أقيم مقام سببه . أو هو بتقدير مضاف ، أى أسباب الرجز . أوالتجوز بالتشبيه .

وقرئ بضم الراء ، وهو لغة فى المكسور ، وهما بمعنى ، وهو العذاب .

وعن مجاهد أنه بالضم بمعنى الصنم ، وبالكسر العذاب .

وأمره ﷺ بذلك ، وهو برىء منه ، إما أمر لغيره تعريضاً ، أو المراد الدوام على هجره.

« وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ » أى لاتعط عطية تلتمس بها أفضل منها ، بمعنى : لا تعط شيئاً لتعطى أكثر منه . يقال : مننت فلاناً كذا ، أى أعطيته . كما قال [2] : (هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ) أى فأعط أو أمسك . وأصله أن من أعطى فقد منّ ، فسميت العطية بالمنّ على سبيل الاستعارة . وجوّز القَفَّالُ أن يكون الاستكثار عبارة عن طلب العوض كيف كان زائداً أو مساوياً . قال : وإنما حسنت هذه الاستعارة ، لأن الغالب أن الثواب يكون زائداً على العطاء. فسمى طلب الثواب استكثاراً حملًا للشىء على أغلب أحواله . وهذا كما أن الأغلب أن المرأة إنما تتزوج ، ولها ولد ، للحاجة إلى من يربى ولدها ، فسمى الولد ربيباً ، ثم اتسع الأمر ، فسمى ربيباً ، وإن كان ، حين تتزوج أمه ، كبيراً .

(١) [٢٢ / الحج / ٣٠] .   (٢) [٣٨ / ص / ٣٩].

وسر النهى أن يكون العطاء خالياً عن انتظار العوض، والتفات النفس إليه تعففاً وكمالاً وعلوّ همة .

وقيل : معنى الآية لا تعط عطاءً مستكثراً له ، فإن مكارم الأخلاق استقلال العطاء ، وإن كان كثيراً ، فالسين للمدّ والوجدان . وسبق فى سورة الروم فى قوله تعالى[1] : (وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ) كلام فى هذه الآية أيضاً فارجع إليه .

« وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ » أى على أذى المشركين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ)

[٩] (فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ)

[١٠] (عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ)

« فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ » أى نفخ فى الصور. و (الناقور) من النقر ، بمعنى التصويت . وأصله القرع الذى هو سبب الصوت . ومنه منقار الطائر لأنه يقرع به أى : لما كان الصوت يحدث بالقرع . تجوز به عنه ، وأريد به النفخ لأنه نوع من الصوت .

« فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ » أى شديد .

« عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ » أى هيّن ، لما يحيق بهم من صنوف الردى . وفى قوله (غَيْرُ يَسِيرٍ) تأكيد يمنع أن يكون عسيراً عليهم من وجه دون وجه ، ويشعر بيسره على المؤمنين . ففيه جمع بين وعيد الكافرين وبشارة المؤمنين .

---

(١) [٣٠ / الروم / ٣٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا)

[١٢] (وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا)

[١٣] (وَبَنِينَ شُهُودًا)

[١٤] (وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا)

[١٥] (ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ)

[١٦] (كَلَّآ إِنَّهُ كَانَ لِأَيَـٰتِنَا عَنِيدًا)

[١٧] (سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا)

« ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا » أى لا مال له ولا ولد .

« وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا » أى مبسوطاً كثيراً ، أو ممدوداً بالنماء .

« وَبَنِينَ شُهُودًا » أى رجالًا يشهدون معه المحافل والمجامع ، أو حضوراً معه يأنس بهم ، لا يحوجه سفرهم وركوبهم الأخطار ، لاستغنائهم عن التكسب والمدح .

« وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا » أى بسطت له فى العيش والجاه والرياسة .

« ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ » . أى من المال والولد والجاه . أو من النعيم الأخروىّ . وهذا أظهر لقوله « كَلَّآ » أى لا يكون مايأمل ويرجو ، لأن الجدير بالزيادة من نعيم الآخرة هم المتقون ، لا هو ، « إِنَّهُ كَانَ لِأَيَـٰتِنَا عَنِيدًا » أى معانداً للحجج المنزلة والمرسلة .

« سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا » أى سأغشيه عقبة شاقة المصعد . وهو مثل لما يلقى من العذاب الشاق الصعب الذى لا يطاق ـ قاله الزمخشرىّ ـ .

قال الشهاب : ومعنى كونه مثلًا ، أنه شبه مايسوقه الله له من المصائب ، بتكليف الصعود

فى الجبال الوعرة الشاهقة ، وأطلق لفظه عليه . فهو استعارة تمثيلية .

ثم علل إرهاقه ذلك بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ)

[١٩] (فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ)

[٢٠] (ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ)

« إِنَّهُ فَكَّرَ » أى ماذا يقول فى هذه الآيات الكريمة والذكر الحكيم « وَقَدَّرَ » أى فى نفسه ما يقوله وهيأه .

« فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ » أى لعن ، كيف قدر ذلك الافتراء الباطل ، واختلق ما يكذبه وجدانه فيه .

« ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ » تكرير للمبالغة فى التعجب منه ، وقد اعتيد فيمن عجب غاية التعجب أنه يكثر من التعجب ويكرره .

و (ثُمَّ) للدلالة على الثانية أبلغ فى التعجب من الأولى للعطف بـ (ثُمَّ) الدالة على تفاوت الرتبة . فكأنه قيل : قتل بنوع ما من القتل ، لا بل قتل بأشده وأشده . ولذا ساغ العطف فيه ، مع أنه تأكيد .

وقد جوز الزمخشرىّ فى هذه الجملة ثلاثة أوجه : أن تكون تعجيبا من تقديره وإصابته فيه المحزّ ورميه الغرض الذى كان تنتحيه قريش . أو ثناء عليه على طريقة الاستهزاء به ، أو حكاية لما ذكره من قولهم (قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ) تهكماً بهم وبإعجابهم بتقديره ، واستعظامهم لقوله .

ثم قال : ومعنى قول القائل : قتله الله ، ما أشجعه ، وأخزاه الله ، ما أشعره ، الإشعار بأنه قد بلغ المبلغ الذى هو حقيق بأن يحسد ويدعو عليه حاسده بذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (ثُمَّ نَظَرَ)

[٢٢] (ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ)

[٢٣] (ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ)

[٢٤] (فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ)

[٢٥] (إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ)

«ثُمَّ نَظَرَ» أى فى ذلك المقدّر . أى تروّى فيه . قال الرازىّ : وهـذه المرتبة الثالثة من أحوال قلبه . فالنظر الأول للاستخراج ، واللاحق للتقدير ، وهذا هو الاحتياط .

وقال غيره : (ثُمَّ نَظَرَ) أى فى وجوه القوم .

« ثُمَّ عَبَسَ » أى قطب وجهه كبراً وتهيؤًا لقذف تلك الكبيرة « وَبَسَرَ » أى كلح وجهه . شأن اللئيم فى مراوغته ومخاتلتـه ، والحسود فى آثار حقده على صفحات وجهه . « ثُمَّ أَدْبَرَ » أى عن الحق « وَٱسْتَكْبَرَ » أى عن الإيمان به . « فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ » أى ما هذا القرآن إلا سحر يروى ويتعلم . أى يأثره عن غيره . « إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ » أى ليس بكلام الله ، كما يقوله .

تنبيه :

اتفق المفسرون أن هذه الآيات نزلت فى الوليد بن المغيرة المخزومىّ ، أحد رؤساء قريش ، لعنه الله . وكان من خبره مارواه ابن إسحاق؛ أن الوليد بن المغيرة ، اجتمع إليه نفر من قريش وكان ذا سن فيهم ، وقد حضر الموسم ، فقال لهم : يامعشر قريش ! إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هـذا ، فأجمعوا رأياً واحداً ولا تختلفوا ، فيكذب بعضكم بعضاً، ويردّ قولـكم بعضه بعضاً . قالوا : فأنت، يا أبا عبد شمس!

فقل، وأقم لنا رأياً نقل به. قال: بل أنتم فقولوا أسمع. قالوا: نقول كاهن. قال: لا، والله ما هو بكاهن! لقد رأينا الكهان، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه. قالوا: فنقول: مجنون! قال: ما هو بمجنون. لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته. قالوا: فنقول شاعر! قال: ما هو بشاعر. لقد عرفنا الشعر كله، رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر. قالوا: فنقول ساحر! قالو: ما هو بساحر. لقد رأينا السحّار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم. قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله! إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق، وإن فرعه لجناة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه، لأن تقولوا: هو ساحر جاء بقول، هو سحر يفرّق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته فتفرّقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم. لا يمرّ بهم أحد إلا حذّروه إياه، وذكروا لهم أمره. فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة، وفي ذلك، من قوله (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ...) الآيات.

وعن قتادة: قال الوليد: لقد نظرت فيما قال هذا الرجل، فإذا هو ليس بشعر، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه ليعلو وما يعلى، وما أشك أنه سحر. فأنزل الله الآيات ـ رواه ابن جرير [1] ـ.

وثم روايات بنحو ما ذكر.

وقد روى عن مجاهد أن الوليد كان بنوه عشرة. وحكى الثعلبيّ عن مقاتل أنه أسلم منهم ثلاثة: خالد وعمار وهشام. قال ابن حجر في (الإصابة): والصواب خالد وهشام والد. فأما عمارة، فإنه مات كافراً، لأن قريشا بعثوه للنجاشيّ، فجرت له معه قصة، فأصيب بعقله. وقد ثبت أنه ممن دعا النبيّ ﷺ عليهم من قريش، لما وضع عقبة بن أبي معيط سلى الجزور على ظهره، وهو يصلّي.

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٥٧ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية).

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (سَأُصْلِيهِ سَقَرَ)

[٢٧] (وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ)

[٢٨] (لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ)

[٢٩] (لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ)

[٣٠] (عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ)

« سَأُصْلِيهِ سَقَرَ » أى جهنم. وهو بدل من (سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا) بدل اشتمال، لاشتمال (سَقَرَ) على الشدائد . « وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ » قال الزمخشرىّ : أى لا تبقى شيئاً يلقى فيها إلا أهلكته ، وإذا هلك لم تذره هالكاً حتى يعاد . أو لا تبقى على شىء ، ولا تدعه من الهلاك ، بل كل ما يطرح فيها هالك لا محالة . « لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ » أى محرقة للجلود ، من (لوّحته الشمس) إذا سوّدت ظاهره وأطرافه . و (البَشَر) جمع بشرة ، وهى ظاهر الجلد. أو اسم جنس بمعنى الناس. وجوّز أن يكون المعنى: لائحة للناس، من (لاح) بمعنى ظهر ، والبَشَر بمعنى الناس . « عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ » أى من الخزنة المتولّين أمرها ، والتسلط على أهلها ، وفيه إشارة إلى أن زبانية العذاب الأخروىّ ، تفوق زبانية الجبابرة فى الدنيا أضعافاً مضاعفة ، تنبيهاً على هول العذاب ، وكبر مكانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ

فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ، كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ، وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ، وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ)

« وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ » أى خزنتها « إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً » أى وهم أقوى الخلق بأسًا ، وأشدهم غضباً لله ، ليباينوا جنس المعذبين ، فلا يستروحون لهم . « وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا » أى من مشركى قريش . أى إلا عدة من شأنها أن يفتتن بها الكافرون ، فيجعلوها موضع البحث والهزء .

قال الجبائىّ : المراد من الفتنة تشديد التعبد ليستدلوا ويعرفوا أنه تعالى قادر على أن يقوّى هؤلاء التسعة عشر على ما لا يقوى عليه مائة ألف ملك أقوياء .

وقال الكعبىّ : المراد من الفتنة الامتحان حتى يفوّض المؤمنون حكمة التخصيص بالعدد المعيّن إلى علم الخالق سبحانه . قال : وهذا من المتشابه الذى أمروا بالإيمان به .

« لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَـٰبَ » أى رسالة النبىّ صلوات الله عليه لإنبائه من وعيد الجاحدين المفسدين ما لديهم مصداقه . واللام متعلقة بـ (جَعَلْنَا) الثانية .

فإن قيل : كيف يصح جعلهم فى نفس الأمر على هذا العدد ، معللًا باستيقان أهل الكتاب ، وازدياد المؤمنين ، واستبعاد أهل الشك والنفاق ، وليس إيجادهم تسعة عشر سبباً لشىء من ذلك ، وإنما السبب لما ذكر ، هو الإخبار عن عددهم بأنه تسعة عشر ؟

والجواب : أن الجعل يطلق على معنيين :

أحدهما ـ جعل الشىء متصفاً بصفة فى نفس الأمر .

وثانيهما ـ الإخبار باتصافه بها ، ويقال له : الجعل بالقول . أى وما جعلنا عدتهم بالإخبار عنها إلا عدداً يقتضى فتنتهم ، لاستيقان أهل الكتاب ... الخ . أى وقلنا ذلك

وأخبرنا به لاستيقان. . . الخ. وعبر عن الإخبار بالجعل ، لمشاكلة قوله (وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ . . . الخ ـ هذا ما قرّره شرّاح القاضى ـ .

«وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا» أى تصديقاً إلى تصديقهم بالله ورسوله . «وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا» أى حتى يخوّفنا بهؤلاء التسعة عشر .

قال الزمخشرىّ : فإن قلت: كيف ذكر الذين فى قلوبهم مرض، وهم المنافقون، والسورة مكية ، ولم يكن بمكة نفاق ، وإنما نجم بالمدينة ؟

قلت : معناه وليقول المنافقون الذين ينجمون فى مستقبل الزمان بالمدينة بعد الهجرة ، والكافرون بمكة ، ماذا أراد الله بهذا مثلًا . وليس فى ذلك إلا إخبار بما سيكون ، كسائر الإخبارات بالغيوب . وذلك لا يخالف كون السورة مكية . ويجوز أن يراد بالمرض الشك والارتياب ، لأن أهل مكة كان أكثرهم شاكّين ، وبعضهم قاطعين بالكذب . انتهى .

وقال الرازىّ : إن قيل : لم سموه مثلًا ؟

فالجواب : أنه لما كان هذا عدداً عجيباً ، ظن القوم أنه ربما لم يكن مرادُ الله منه ما أشعر به ظاهره ، بل جعله مثلاً لشىء آخر ، وتنبيهاً على مقصود آخر ، لا جرم سموه مثلاً .

«كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ» أى إضلاله لصرفه اختياره إلى جانب الضلال : عند مشاهدته آيات الله الناطقة بالحق . «وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ» أى هدايته لصرف اختياره عند مشاهدته لتلك الآيات إلى جانب الهدى «وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ» قال الزمخشرىّ : أى وما يعلم ما عليه كل جند من العدد الخاص ، من كون بعضها على عقد كامل ، وبعضها على عدد ناقص ، وما فى اختصاص كل جند بعدده ، من الحكمة إلا هو . ولا سبيل لأحد إلى معرفة ذلك ، كما لا يعرف الحكمة فى أعداد السموات والأرضين وأمثالها . أو وما يعلم جنود ربك لفرط كثرتها إلا هو ، فلا يعزّ عليه الزيادة على عدد الخزنة المذكور ، ولكن له فى هذا العدد الخاص حكمة لا تعلمونها . انتهى .

ويجوز أن تكون الجملة تأييداً لكون ما تقدم مثلاً . أى أن المؤمنين يستيقنون بأن عدتهم ضربت مثلاً للكثرة غير المعتاد سماعها للكافرين . ومن سنته تعالى ضرب الأمثال فى تنزيله، وإلا فلا يعلم جنوده التى يسلطها على تعذيب من يشاء إلا هو . وهذا معنى آخر ، لم أقف الآن على من نبه عليه . ويؤيده قوله :

« وَمَا هِيَ » أى عدتهم المذكورة « إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ » أى عظة يرهبون منها عذاب النار ، وهول أصحابها .

وقيل الضمير لـ (سقر) . وقيل : للآيات . والأقرب عندى هو الأول لسلامته من دعوى كون ما قبله معترضاً ، إذا أعيد الضمير لغيره ، ولتأييده لما قبله بالمعنى الذى ذكرناه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (كَلَّا وَالْقَمَرِ)

[٣٣] (وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ)

[٣٤] (وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ)

[٣٥] (إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ)

[٣٦] (نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ)

[٣٧] (لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ)

« كَلَّا » ردع لمن أنكر العدة أو سقر أو الآيات . أو إنكار لأن تكون لهم ذكرى لأنهم لا يتذكرون ، « وَالْقَمَرِ * وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ » أى ولى ذاهباً بطلوع الفجر .

« وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ » أى أضاء . ومن فوائد القسم بها الاعتبار بفوائدها ، والاستدلال بآياتها ، كما تقوم فى سورة (الصافات) :

« إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ » أى الأمور العظام .

« نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ » أى إنذاراً لهم، فنصبه على أنه تمييز عن (إحدى) لما تضمنه من معنى التعظيم ، كأنه قيل: أعظم الكبر إنذاراً. و(نذيراً) بمعنى الإنذار، كنكير بمعنى الإنكار. أو على أنه حال عما دلت عليه الجملة. أى كبرت منذرة ، و(نذيراً) مصدر مؤول بالوصف، أو وصف بمعنى منذرة .

« لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ » أى يسبق إلى الإيمان والطاعة « أَوْ يَتَأَخَّرَ » أى يتخلف. و (لمن) بدل من (للبشر) أى منذرة لمن شاءوا التقدم والفوز، أو التأخر والهلاك. أو خبر مقدم ، و (أن يتقدم) مبتدأ مؤخر ، كقولك لمن توضأ أن يصلى ، كآية[1] (فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ) وفى الثانى بُعْدٌ . وزعم أبو حيان أن اللفظ لا يحتمله ، ولم يسلم له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ)

[٣٩] (إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ)

[٤٠] (فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ)

[٤١] (عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ)

[٤٢] (مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ)

[٤٣] (قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ)

[٤٤] (وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ)

[٤٥] (وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ)

(١) [١٨ / الكهف / ٢٩] .

[٤٦] (وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ)

[٤٧] (حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ)

[٤٨] (فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ)

« كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ » أى مرهونة ومحبوسة به عند الله تعالى . « إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ » أى فإنهم فكوا رقابهم بما أطابوه من كسبهم ، كما يخلص الراهن رهنه بأداء الحق . « فِى جَنَّٰتٍ » أى هم فى جنات لا يدرك وصفها « يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ » أى يسألون عنهم . وإيثار صيغة التفاعل للتكثير . ومنه (دعوته وتداعيناه) .

وقال القاشانىّ : أى يسأل بعضهم بعضاً عن حال المجرمين ، لاطلاعهم عليها ، وما أوجب تعذيبهم وبقاءهم فى سقر ، فأجاب المسؤولون بأنا سألناهم عن حالهم بقولنا :

« مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ * قَالُوا۟ » أى بلسان الحال أو المقال « لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ » أى كنا موصوفين بهذه الرذائل من اختيار الراحات البدنية ، ومحبة المال ، وترك العبادات البدنية ، والخوض فى الباطل ، والهزء والهذيان ، والتكذيب بالجزاء ، وإنكار المعاد .

« حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ » أى الموت ، فرأينا به ما كنا ننكره عياناً . « فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ » أى من نبىّ أو ملك ، لو قدر على سبيل فرض المحال ، لأنهم غير قابلين لها . فلا إذن فى الشفاعة لذلك . فلا شفاعة ، فلا تنفع .

قال ابن جرير[1] : أى فما يشفع لهم الذين شفعهم الله فى أهل الذنوب من أهل التوحيد ، فتنفعهم شفاعتهم . وفى هذه الآية دلالة واضحة على أن الله تعالى ذكره ، مشفِّع بعض خلقه فى بعض .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٦ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ)

[٥٠] (كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ)

[٥١] (فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ)

[٥٢] (بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً)

[٥٣] (كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ)

[٥٤] (كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ)

[٥٥] (فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ)

[٥٦] (وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ، هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ)

« فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ » أى فما لهؤلاء المشركين عن تذكرة الله إياهم بهذا القرآن معرضين ، لا يستمعون لها ، فيتعظوا ويعتبروا . « كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ » أى كأنهم فى الإعراض عن الذكرى ، وبلادة قلوبهم ، حمر شديدة النفار . « فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ » أى أسد ، أو عصبة قنص من الرماة . « بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً » أى ينزل عليه كتاب كما أنزل على النبىّ ﷺ . ونحوه آية[1] (وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ) وآية[2] (وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ) وآية[3] (وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ . . .) الآية .

(١) [٦ / الأنعام / ١٢٤] . (٢) [١٧ / الإسراء / ٩٣] .
(٣) [٦ / الأنعام / ٧] .

« كَلَّآ » أى لا يكون مرادهم ، ولا يتبع الحق أهواءهم . أو ليس إرادتهم تلك للرغبة فى الإيمان ، فقد جاءهم ما يكفيهم عن اقتراح غيره ، وإنما هم مردة الداء ، ولذا قال : « بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْأٓخِرَةَ » أى لا يؤمنون بالبعث والجزاء ، ولا يخشون العقاب ، لإيثارهم العاجلة . أى فذلك الذى دعاهم إلى الإعراض عن تذكرة الله ، والإباء عن الإيمان بتنزيله . « كَلَّآ » ردع عن إعراضهم « إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ » أى فاتعظ وعمل بما فيه من أمر الله ونهيه . « وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ » أى ذكرهم واتعاظهم ، لأنه لا حول ولا قوة إلا به سبحانه . وفيه ترويح لقلبه صلوات الله عليه ، مما كان يخامره من إعراضهم ، ويحرص عليه من إيمانهم . « هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ » أى حقيق بأن يتقى عقابه ، ويؤمن به ويطاع . « وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ » أى حقيق بأن يغفر لمن آمن به وأطاعه .